الفصل الرابع

دون وداع

في إحدى المصحات النفسية الخاصة بالهيئات العسكرية المصرية، طرقت الدكتورة "حياة" باب إحدى الغرف طرقةً واحدةً، ثم دخلت دون استئذان، وعلى وجهها ابتسامةٌ عذبةٌ، تحمل من الثقة الشيء الكثير.. وضعت أوراقها جانباً، ثم هتفت موجهةً الكلام للمريض الوحيد بالغرفة:

-أخبرني الجميع أنك مصابٌ باكتئابٍ حادٍ، ويُصر جميعهم أنه من المحتمل أن تؤدي بك هذه الحالة إلى الوفاة.. لكنني أظنهم يبالغون في تقدير الأمر.. وقررتُ أن ألتقي بك بنفسي، ورغم كل مشاغلي، وكل واجباتي العسكرية والمخابراتية.. قررتُ أن آتي إلى هنا، لا لأعالجك من اكتئابك الحاد.. ولا لأجبرك على النطق الذي فقدته منذ أن وقعت الحادثة.. ولا لأعيد إليك النشاط والقوة؛ لتستطيع الحركة من جديد.. كل هذا أنت قادرٌعلى فعله، وتستطيع القيام به دون أدنى مجهود.

أنت واهمٌ، أغرقت نفسك في بحار الوهم، وعندما استعمر الوهم عقلك صدقته أنت.. صدقت أنك لن تسطيع الكلام مرةً ثانيةً.. صدقت أنك فقدتَ الحركة.. وصدقت أن كل الألوان أصبح لونها أسود، وأن هذه الحياة، مجرد امرأةٍ غادرةٍ، أخذت منك كل أحبائك ورحلت.

لكن على العكس تماماً، هذه الحياة رفقت بأحبابك، وقررالقدر أن مكانهم ليس هنا، هم يستحقون حياةً لا عناء فيها، ولا نصب، لذلك، اصطفاهم الله إلى جواره.. هل ستظل صامتاً هكذا؟ احكِ لي ولو شيئاً يسيراً.

سكتت حياة قرابة الخمس دقائق، قبل أن تُمسك بحقيبتها، وتهبُ مغادرة وهي تقول:

-استرح الآن، سأزورك مرة أخرى، وأرجو فيها أن تتحسن حالتك.. وقبل أن تصل إلى باب الغرفة استدارت إليه مرة أخرى قائلةً:

-لدي لك رسالةٌ مهمةٌ.. رسالةٌ مهمةٌ جداً، كان من المفترض أن أقرأها عليك الآن؛ لأن مرسلها بحاجةٍ ماسةٍ لك.

لم يبدُ على وجهه أي تغيير.. لكنها أردفت:

-هذه الرسالة كتبت بخطٍ أعرجٍ، وكأن كاتبها طفلٌ صغيرٌ.. نظرت إلى ملامحه مرةً أخرى؛ لترى وقع تأثير الكلام عليه.. لكن ملامحه الجامدة، ظلت كما هي، وكأنه لا يعي حرفاً مما تقول.. فقررت أن تلفت انتباهه أكثر قائلةً:

-الرسالة لطفلٍ اسمه " يوسف أحمد البابلي ".

هنا انتفض المريض، وكأن كهرباء قد صعقته.. ونظر إلى عينيها في لهفةٍ، ونطق للمرة الأولى منذ ثلاثةٍ وعشرين يوماً:

-ماذا به.. ماذا يريد يوسف.. هل أصابه مكروه.. هل يحتاج إلى شيءٍ ما.. هل هو ووالدته بخير.. هل حقاً كتب رسالةً لي أنا؟.. وهل يعرفني بصدقٍ ؟.. من فضلكِ أخبريني لماذا أنتِ صامتةٌ هكذا؟

عادت إلى داخل الغرفةِ مرة ًثانية ً، وأغلقت الباب وراءها.. جلست على الفراش الخاص بالمريض.. ونظرت إليه نظرة ًمتفحصة ً، قبل أن تنفرج شفتاها عن ابتسامةٍ رقيقةٍ، وهي تهتفُ:

-كنتُ أشعر أنك بطلٌ.. وأنك لن تمكث بضع دقائق حتى تنطق.. بالمناسبة إخوتك بالخارج، يريدون مقابلتك لكنني لن أسمح بذلك.

- لمَ؟

- أخبرتني أختك أنكَ عمود الأسرة، فلم أشأ أن أتركها ترى عمود الأسرةِ، وهو منهدمٌ كما لو أنه والأرض سواءٌ!

-قال في أسى:

-سوف تراني في هذه الحالة عاجلا ًأو آجلا ً.

-أنا على يقينٍ تامٍ بأنك ستعود إلى طبيعتك بعد ساعةٍ واحدةٍ من الآن.. ستعود وحشاً كاسراً، كما كنتَ تلتهم رؤوس الأعداء، دون رفقٍ أو هوادةٍ.. ثم قالت باسمة ً:

-وستطلب مني أن تغادر المشفى، حينها لن أسمح أنا بذلك؛ لأنك لم تستكمل مدة علاجك!

-أنتِ متفائلة أكثر من اللازم.

-ولكنني لم آتِ بهذا التفاؤل من فراغٍ .. الرسالة تقول ذلك.

قال ودمعة ٌتنحدر على خده:

-وما الذي جاء فيها يثبت ذلك؟

-ليس قبل أن تحكي لي كل شيءٍ.

-لن أفعلَ.

-بل ستفعل.

-أرجوكِ رفقاً بي.. أنا لم يعد لدي قدرة على فعل أي شيءٍ، بل حتى لا أستطيع الكلام.

-أعلم، ولذلك أحاول أن أدربك عليه من جديدٍ لأمرٍ هامٍ جداً، لن يصلح أحد للقيام به إلاك.

-بل على العكس تماماً، كل الجنود يستطيعون القيام به إلا أنا.

قالت في تساؤلٍ :

-وهل يتسطيع كل الجنود تنفيذ وصية الضابط "أحمد البابلي"؟

اتسعت عينيه في ذهولٍ ، وخرجت دمعةٌ حبيسةٌ، قبل أن يقول في تساؤلٍ :

-أشملتني وصيته؟

-بالطبع.. وكنتَ أنت السببَ في إيقاف تنفيذها لأكثر من ثلاثة وعشرين يوماً.

قال بصوتٍ يحمل رنة البكاءِ:

-سأحكي لكِ كل شيءٍ من البداية وحتى النهاية.

أسند ظهره إلى الوراء.. وأخذ نفساً عميقاً قبل أن يقول:

-اسمي " معتصم الخياط ".. ولدتُ بمحافظة كفر الشيخ تحديداً مركز مطوبس.. منذ أن ولدتُ، وأنا لم أعرف لي رفيقاً إلا الفقر.. لطالما سخرت مني الحياة، وكأن بيني وبينها ثأراً أوعداوةً ما.. لكنني كنتُ أحتملها.. في كل مرةٍ حتى خارت قواي، ووهنت صحتي، وتفتت روحي.

أنا أصغر إخوتي.. ولدتُ قبل وفاة أبي بأيامٍ قلائل.. لم يكن لنا عائلٌ إلا أخي الأكبر الذي يكبرني بعشر سنوات.. أصبح ربَّ العائلة، وأصبح مكلفاً بإعالةِ عائلةٍ تتكونُ من الأمِ وخمسةٍ من الإخوةِ.. هو وأنا وثلاث فتيات.. ظلت أمي تعمل في البيوت، وهو يتنقلُ من عملٍ إلى آخر، إلى أن استقر بمهنة التكسب من قيادة السيارات.. بعد ذلك منَّ الله عليه، واستطاع أن يكمل نصف دينه.. ورزقه الله ثلاثاً من الفتيات كل واحدةٍ منهن كأنها القمر.

وذات يومٍ، وهو عائدٌ بسيارته، وتحديداً عند منتصف الليل، صدمت سيارته سيارة طائشة، فما كان من سيارته إلا أن انقلبت عدة مرات قبل أن تشتعل وهو داخلها.

حاول أن يبتلع أحد الدمعات التي تقف عند زوايا فمه، وكأن مرارتها أقل مرارةً مما يحكيه.. ثم أردف قائلاً:

-تذوق نار الدنيا، فاللهم أمّنه من نار الآخرة.

حينها كنتُ جندياً بالجيش.. بدأت مدة خدمتي قبل سبعةِ أيامٍ فقط.. ولعدم انتشار الهواتف الأرضية حينها، لم يُنبئني أحد بالخبر، حتى أعدّ عدتي، وأسافر ليلاً؛ لألحقهم قبل أن تشييع جنازته.

وفي الصباح، جاء اتصالٌ من شباب قريتنا على هاتف الوحدة الأرضي.. كان قائدي حينها يُدعى" أحمد البابلي " استدعاني في تأثرٍ، وحاول ألا يخبرني بما حدث مختلقاً أي سببٍ آخر.

وبدون قصدٍ منه قال:

-والدتك مريضةٌ للغاية، وقد منحتك إذناً لزيارتها، ومنحتك عطلة لمدة خمسة أيامٍ.

وقبل أن يكمل حديثه هتفتُ في قلقٍ :

-هل حدث لها شيءٌ؟ ثم أردفتُ متابعاً:

-لعنة الله على السرطان.

هتف القائد في دهشةٍ:

-هل والدتك مصابةٌ به؟

هززتُ رأسي أن نعم.

قال على الفور:

-منحتك عطلة لا تقل عن عشرين يوماً.

تركتُ الوحدة على عجلٍ ، وروحي تكاد تسابق السيارة.. وعندما وصلتُ بلدتي سمعتُ صراخاً وعويلاً ينطلق من الجهة التي نقطنُ بها.. ازدادت ضربات قلبي، واتسعت خطاي.. حينها قابلني أحد رجال القرية، والحزن مخيمٌ على وجهه.. حمل عني أمتعتي، وهويهتف قائلاً:

-البقاء لله يا بني.

هرولتُ إلى المنزل.. اخترقتُ صفوف المعزيين، وقبل أن أصل إلى البيت، وجدتُ النعش يُرفع بحمله خارجاً منه، وتفاجأتُ بأن المتوفى لم يكن إلا أخي رب الأسرة، وأبي من بعد أبي.. قلتُ بصوتٍ يخنقه البكاء:

-لو أنكم انتظرتم قليلاً؛ لألقي عليه نظرة الوداع!

فما كان من أحد أقاربي إلا أن قال:

-كما تعلم يا بني " إكرام الميت دفنه ".

ومات أخي الوحيد، دون أن أودعه أو أراه أو حتى ألقي نظرة أخيرة على ملامحه الملائكية.. أودعته التراب، وأودعتُ السند معه، ومعهما أودعتُ ذكريات طفولتي، وأقسمتُ على نفسي أن أكون خير أبٍ لأبنائه، مثلما كان هو خير أبٍ لي.

خيّم على منزلنا السواد، وساءت حالة أمي، وكدنا أن نموت جوعاً، وما من عائلٍ للأسرةِ.. انتهت أيام إجازتي التي منحني إياها القائد، وعدتُ إلى الوحدة مرةً ثانيةً تاركاً خلفي أمي المريضة وإخوتي المكلومين، وأبناء أخي اليتامى، وليس معهم أحد إلا الله.. ودعوني بدموع الثكالى وانصرفتُ عنهم أحمل عبءً لا يعلمه إلا الله.

عدتُ إلى وحدتي، وتفاجأتُ بقائدي يزورني في غرفتي، ويقدم لي واجب العزاء.. مرت الأيام تليها الشهور، وإذا بنا في أول ليلةٍ من ليالي رمضان.. وبعد الانتهاء من أول صلاةِ تراويح يؤمها القائد " أحمد البابلي " بنفسه إذا به ينتهي منها، ويلتفتُ إلينا قائلاً:

-مَن كان له حاجة، فليأتيني في مكتبي، وسأحاول تلبية حاجته قدر استطاعتي؟

ذهبتُ إليه، وأنا أقدم ساقاً وأؤخر أخرى، حتى استجمعتُ شجاعتي، وطرقتُ بابه.. كان يعرفني جيداً، فما كان منه عندما رآني إلا أن تساءل قائلاً:

-كيف حالُ والدتك؟

-هي بخير.

-هل ما زالت تواصل جلسات الكيماوي؟.

خفضتُ بصري إلى الأرض قائلاً:

-لقد انقطعت عنها منذ أقل من شهر؛ لضيق اليد وشظف العيش.

تغير لونه ثم قال بعطفٍ:

-ماذا تريد؟

قلتُ له:

-تمنحني الوحدة عشرة أيامٍ إجازة كل خمسة وثلاثين يوماً.. فلو كان من الممكن أن تزيدوا لي أيام الإجازات، فأنا العائل الوحيد لأسرتي التي تتكون من أمي وإخوتي وزوجة أخي وبناتها.. ثم إن أختي الكبرى ستتزوج بعد عيد الفطر مباشرةً، ولم نشرع في جهازها حتى الآن.

ارتسمت على شفتيه ابتسامة ودودة قبل أن يقول:

-أبشر.

وهكذا انصرفتُ من مكتبه مرتاح البال، مطمئناً بعض الشيء، وبعد صلاة القيام في اليوم التالي، إذا بأحد زملائي يخبرني بأن رئيس الوحدة بنفسه طلبني في مكتبه.. ذهبتُ إليه، وأنا أحملُ في صدري أكواماً من القلق.. ترى ما الذي يريده مني الرئيس بنفسه؟.. تباطأت خطاي حتى أستطيع قراءة كل ما أحفظه من القرآن.. وعندما ذهبتُ إليه رحب بي، ثم قال مبتسماً:

-لقد أخبرني المقدم " أحمد البابلي " بقصتك، وبعد أن تأكدنا من صدق حديثك، منحته الحق في أن يحدد هو أيام عملك، وأيام عطلتك، فما كان منه إلا أن اختار لك عشرة أيامِ عملٍ بالوحدة وعشرين يوماً عطلة.. لم أكد أصدق، وقبل أن أنتبه مؤدياً التحية العسكرية ، إذا بالباب يطرق وأحدهم يدخل محتضناً إياي ومباركاً لي، ولم يكن هذا سوى المقدم " أحمد البابلي "!

بعد هذه الواقعة بأيامٍ، وذات مرة خلال أيام إجازتي، إذا بالهاتف الأرضي الموجود بالصيدلية المجاورة يدق؛ ليعلن المتحدث أنه يريد الحديث معي إن أمكن.. ولحسن الحظ حينها كنتُ عائداً من العمل وفي طريقي للمنزل.

لم أستطع أن أخمن، مَن يكون المتصل؟ فلستُ مهماً إلى هذه الدرجة التي تجعل أحدهم يطلب الحديث إليّ.. وعندما وضعتُ السماعة على أذني، لم يكن المتصل إلا هو سيادة المقدم " أحمد البابلي " وبينما أنا تائه، ولا أستطيع أن أفهم ما الذي وراء هذا الاتصال إذا به يقول لي:

-لا تفكر كثيراً، لم أتصل بك من أجل شيءٍ مهمٍ.. فقط أردت إيصال رسالةٍ للوالدة فهلا سمحتَ لي وقمتَ بدور الوسيط.. قلتُ حائراً:

-نعم.

قال ضاحكاً:

-أخبرها نيابةً عني أن تطعمكم اليوم الكثير من اللحم!!

قلتُ له في دهشٍ:

-معذرةً، لم أفهم ما تقول.. فإذا به يقول لي:

-باختصارٍ، أبلغ والدتك أن تجعل إفطاركم الليلة الكثير من اللحم.

لم أفهم ماذا يريد، وما هذا الطلب الغريب؟ وعندما أخبرتُ والدتي قالت لي:

-والله إني لأحبه.. ولن ألقي أوامره وراء ظهري أبداً، وذهبت بنفسها؛ لتقتني اللحم.. وبمجرد أن وضعته في الإناء؛ لتطبخه، إذا بالباب يطرق، ولم يكن الطارق إلا هو.. وبينما أنا في ذهولٍ، ولم أكد أن أصدق ما تراه عيني، إذا به يسلم على أمي ويقبّل

يدها.. وبعد عدة دقائق، كان يتناول معنا إفطارنا، وكأنه واحدٌ منا.. وليس ذلك الضابط الذي تخشى الجفون أن ترمش في حضرته.

مسح دموعه بظهر يديه، وهو يهتفُ:

-حتى هذه اللحظة، لم أصدق أنه فعلها.. لا تتوهمي بالحديث عنه أنه كان عاطفياً وخيالياً أكثر من اللازم.. وشخصيته تشبه الرسامين والأدباء.. على العكس تماماً، كان حازماً وصارماً.. يغريه الانضباط.. وتستثيره الفوضى والاستهتار.

لنعد إلى حديثنا.. وبعد أن انتهينا من تناول الإفطار، وقبل أن يرحل أعطاني مظروفاً منتفخاً مغلفاً بالشمع الأحمر، وقال وهو يشد علي يدي:

-بإذن الله سنحضر سوياً زفاف أختك بعد عيد الفطر مباشرةً.. وأما عن جلساتِ والدتك فأنا المتكفل بها منذ الآن، وحتى بعد أن تنتهي مدة خدمتك!.. ثم رحل.. وكان هذا اللقاء آخر عهدي به.

ابتلع دمعةً سقطت عند زاوية فمه، ثم أدرف قائلاً:

-انتهت إجازتي بعد هذه الواقعة بثلاثة أيامٍ.. عدتُ للوحدةِ مرةً أخرى، ولا أدري لماذا هذا الشعور المقلق الذي يساورني منذ أن خرجتُ من بيتي متجهاً إليها؟.. وعندما اقتربتُ منها، ظل قلبي ينتفض في صدري بطريقةٍ عنيفةٍ.. نبضاتُ تدق في قلبي معلنةً ناقوس الخطر.. كدتُ أن أعودَ لمنزلي مرة أخرى معتقداً أن هذا القلق الذي يساورني مبعثه الخوف على أسرتي.. وقفتُ في منتصف الطريق وتنهدتُ بعمق وقلتُ:

-اللهم إني أستودعك ما أخشى فقدانه.. وتحاملتُ على نفسي، وأكملتُ طريقي مسرعاً رغم الليل، ورغم الأرض الجبلية غير المستوية التي أسير عليها.

وما إن وضعتُ أول قدمٍ لي بالوحدة، حتى أحسستُ أن المكان مخيمٌ عليه حزنٌ غريبٌ.. وأن سحباً عظيمةً من الكآبةِ قد أسدلت رداءها على المبنى.. لا أدري، لمَ تذكرتُ المقدم " أحمد البابلي "؟ ولمَ شعرتُ بأن سكيناً قد انغرس في صدري؟

أسرعتُ تجاه مكتبه، فوجدتُ مجموعةً من زملائي يقفون أمام مكتبه، وينظرون إلى صورته، ودموعهم تنحدر في صمتٍ.. لم أشأ أن أسألهم عنه.. خشيتُ من إجابتهم، ولأول مرةٍ أشعر أن الإجابات قد لا تكون مطمئنة، بل قد تكون قاتلة.. خشيتُ قولهم إنه مات، فاحتفظتُ بسؤالي في حلقي، وكأن عدم سؤالي عن حاله سيطيل من عمره أكثر.

ويا للعجب، لقد طاردتني الإجابات حين تحرك أحدهم تجاهي، وملابسه ملطخة بالدماء وهو يقول في نشيجٍ يشبه البكاء:

-كنتُ واحداً من الذين قاموا بمداهمة الإرهابيين معه.. لكن الله اصطفاه وحده من بين أحد عشر جندياً.. قال لي وهويلفظ أنفاسه الأخيرة، أوصل لمعتصم تلك الكلمات:

-أوصيك بألا تجزع، وأن تقيم زفاف أختك في ميعاده، وأن تطمئن على طفليه كلما سنحت لك الفرصة، فلطالما حدثهم عنك.. وطلب مني أن أخبرك أيضاً أنه أحبك كأخيه الأصغر، وهو لا يدري لماذا كل هذا الحب الذي منحك إياه رغم أن علاقتك به لم تكن سوى أشهرٍ قليلةٍ؟

ذهبتُ لرئيس الوحدة، طلبتُ منه أن يسمح لي أن أترك الوحدة الليلة حتى أذهب إلى القاهرة وأؤدي واجب العزاء، وحتى أشهد جنازته، لكن الرئيس لم يسمح لي

لأسبابٍ عسكريةٍ.. فما كان مني إلا أن هربتُ وأخذتُ أعدو في منتصف الصحراء كطفلٍ تائهٍ، فقد أمه، وتطارده الذئاب.. حتى شارفتُ على الطريق الرئيس.

وما إن وصلتُ لمنزل الشهيد بالقاهرة، حتى وجدتهم قد انتهوا من مواراته التراب.. نفس المشهد يتكرر وللمرة الثانية، لم أستطع أن أراه ولو لمرةٍ أخيرةٍ.. وهكذا فقدتُ أخي من بعد أخي مثلما فقدت أبي من بعد أبي.

ابتلعتُ خيبتي، بعدما لم أنجح في أن أشهد جنازته.. حاولتُ أن أسأل عن زوجته وأولاده كما أوصاني، لكنني تراجعتُ في اللحظة الآخيرة، كيف بيائسٍ فقيرٍ مثلي أن يسأل عن هؤلاء؛ ليعزيهم!.. ماذا أكون أنا وسط أولئك الأثرياء الذين يملؤن سرادق العزاء؟.. نظرتُ إلى بدلتي الكاكية التي أحال التراب لونها.. وإلى وجهي ويداي المغبرتين.

وعدتُ خائب الخطى إلى الوحدةِ مرةً أخرى، أحملُ هماً فوق هم، ولوعةً فوق لوعةٍ.. وهناك حُكمٌ عليّ بأربعين يوماً أقضيها في السجن؛ لمخالفة الأوامر، والهروب من الوحدة.

ازدرد ريقه في مرارةٍ ثم أردف رغم دموعه:

-وكأنهم يعاقبونني على كوني إنساناً.. وكأنهم قرروا الانتقام مني لأنني قررتُ الوفاء لقائدي.

لم أعطِ للأمر كثير اهتمامٍ، فالحرية والسجن من الآن عندي سواءٌ، لكنني طلبتُ منهم طلباً واحداً هو أن أذهب إلى مكتبه؛ لألقي على المكان الذي يخصه، وعلى صورته

نظرةً أخيرةً. وبالفعل وافقوا.. وما إن وقفتُ أمام باب مكتبه حتى طرقته وكأنه بالداخل.. فتحتُ الباب وأنا أقول بصوتٍ عالٍ :

-السلام عليك أيها الوفي، ثم أجهشتُ بالبكاء.. وأطلقتُ العبرات الحبيسة من مقلتي، وأنا أشعر بأنني لم أبكيه وحده، بل إنني أبكي الخلق جميعاً.. فكلهم قد ماتوا معه، ولم يعد على قيد الحياة سوى أنا، وشعرتُ بفداحة الأمر، ماذا سأفعل وحدي، فقد انهار آخر جدارٍ كنتُ أتكأ عليه، وآخر حصنٍ كنتُ ألوذ إليه.

جلستُ على كرسيه، وأجهشتُ بالبكاء، حتى خارت قواي، فإذا بجنديين يمسكان بي متجهيْن بي إلى السجن، وفي الردهة الخارجية سمعتُ رنين الهاتف الأرضي، وصوتُ أحدهم يهتف بعد ثوانٍ من الاتصال قائلاً:

-ماتت.

فالتفتُ إليه، ولا أدري، لما شعرتُ بأن هذا الاتصال يخص والدتي.. وجهتُ بصري ناحية المتكلم، وأنا أنظر له في ترقبٍ ولهفةٍ، فإذا به ينظر إليّ، ويقول بتأثرٍ وشفقةٍ:

-البقاء لله، لقد ماتت والدتك.

هنا دارت بيَ الأرض، ولم أعد أدري ماذا حدث؟ فلم أستفق إلا هنا، والأطباء يغدون ويروحون حولي، وهم يرددون أنني على وشك الموت، إذا استسلمتُ لما أنا فيه.. مسحت حياة دموعها وهي تقول في تأثر:

-ولكنني متيقنة من كونك ستتجاوز هذه الأزمة بسهولةٍ بعد دقائق.

-وما الذي جعلكِ متيقنة هكذا؟.

-هذا الخطاب الصغير.. وأخرجت من حقيبتها ورقةً ما.